

الفصل السابع

الصهيونية

أو حركة الانتقال من القومية الدينية الى الدين القومى

١ - أصول الصهيونية فى الدين اليهودى (١) :

فى المنفى فى بابل بعد سنة ٥٨٦ ق.م. ، تحول للدين العبرى الى الدين اليهودى . فى الدين العبرى كان الاله شعبه المختار فقط يدفعه ويؤازره ويحركه ويعمل له من أجل استيطانه فلسطين والمحافظة على جنسيته وعنصره ، لكنه لم يكن يتدخل فى كثير أو قليل فى حياة الشعوب الأخرى بعد أن تم الاستيطان الأول وقيام مملكة داوود . أما بعد المنفى فقد أصبح الاله يتدخل لا لحماية شعبه فحسب بل لاذلال واخضاع شعوب العالم لشعبه المختار ولاستمرار استعبادهم له على ممر العصور ، ولذلك ، بعد أن كان أولا الاله شعبه وقلما كان الاله الآخرين ، أصبح بعد المنفى الاله الآخرين ، الاله البشر أجمع لا لحبهم ولرعايته أو هديه لهم ، بل لاختضاعهم لسلطة شعبه وتسهيل استعبادهم واستعمارهم من قبل شعبه الحبيب . وهذا هو حصيلة حركة الاله من القومية الى العالمية .

وغير المنفى أيضا مفهوم التعبد من اقامة الطقوس القربانية الى دراسة نصوص الوحي أى التوراة والتدين بتلاوتها المستمرة واقامة

(١) راجع كتاب المؤلف بنفس هذا العنوان ، نشر معهد البحوث والدراسات العربية لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٩ .

القانون الذى جاءت به ، وحطم المنفى انقسام الامة اليهودية القديم الى طبقات ثلاث ، الكهنة واللاويين والعامه ، لا تجوز الحركة بينهما الا نزولا من العليا الى السفلى عند نقض الفرد لمقتضيات طبقته ، ان جعل من الامة كلها طبقة واحدة ، كلها فى القداسة سواء وان قام فيها كهنة وقفوا حياتهم على دراسة التوراة وحفظها .

الا أن أهم ما أحدثه المنفى من تغيير فى الدين العبرى ، وهو ادخاله عليه فكرة المسيح ، أو المتوج ملكا على اسرائيل بمسحه بالزيت المقدس ، وهى فكرة انتظار من يقوم بقيادة اليهود من مفاهيم الى دولتهم يهودا بعمل معجز ، فيعيد لهم مملكتهم الداوودية ويحقق لهم استعبادهم واستعمارهم للبشر وسيادتهم على الدنيا كلها . وقد رأى المنفيون فى شخص كورش الفارسى مسيحا أرسله الاله لينقذ شعبه المهزوم ويحقق له أحلامه الانتقامية والاستعمارية .

وقامت لليهود اثر عودتهم مملكة كانت على جانب عظيم من الضعف فى عالم الامبراطوريات الدولية ، وهزمت هذه المملكة على يد الاغريق ثم على يد الرومان .

ولكن فى كل حين ، لا سيما عندما كانت تجرى الحوادث على عكس ما يشتهون ، تطلع اليهود الى المسيح المنتظر ورأوا فيه بلما لجراحهم . فبعد أن شتتهم الرومان سنة ٧٠ للميلاد فى أنحاء الجمهورية الرومانية ، تصاعدت أصوات اليهود الى السماء من جديد بأن يرسل الاله لهم مسيحا يخلصهم ويعيد لهم مجدهم التليد . بل وأصبح هذا اندعاء والتطلع النفسانى الذى ينطوى عليه عنصرا مكونا للدين اليهودى . ففي أقدس أوقات السنة فى يوم التكفير أو « يوم كيبور » ، يقول المصلون فى آخر ما يتوجهون به من دعاء « السنة القادمة فى اورشليم » وبهذا التحم الدين اليهودى بالقومية التحاما أصبح يتعذر بعده فصل السياسة عن الدين . بل دخلت السياسة فى الدين بشكل أصبحت هو فحواه ، وعليه أصبح الدين قومية دينية .

وهناك طبعا من أول هذه النظرية بكاملها كتطلع لمسيح يخلص
 البشر أجمع من هوة المادة والسلطة والجنس والشر والزمنية ، وتفهموا
 المملكة التي سيعيد. المسيح بناءها كمملكة روحانية يشترك فيها الناس
 جميعا على حد سواء . أولئك هم الأسينيون اليهود الذين انسحبوا
 من الأمة اليهودية وتعبدوا فى الصومعات فى تخوم الصحراء ، فمنهم
 من دخل فى الحنيفية العربية ومنهم من دخلوا فى الدين المسيحى
 وعرفوا بعد ذلك بالغنوصيين .

ومع انتشار الدين المسيحى ، وهو دين تفهم المملكة كنظام عالمى
 روحانى لا علاقة له بفلسطين الجغرافية سوى القيمة التاريخية بأنها
 النقطة التى انطلق منها ، ازداد تشبث اليهود بمادية وجغرافية وسياسية
 المملكة المنتظرة ، فسموية الأولى تعادلت مع أرضية الثانية ، وغالى
 اليهود ، كعادتهم فى كل شىء ، فى قيمة المملكة الأرضية ، بل فى أرض
 المملكة المادية ، فالذين كانوا يستطيعون سبيلا ، كانوا يوصون بوضع
 حفنة من تراب فلسطين تحت رأسهم عند دفنهم بعد موتهم . وقام بينهم
 بين الحين والحين « مسيحيون دجالون » استغلوا سذاجة العامة اليهودية
 ليحققوا مكاسب شخصية لهم ، وتفجرت عبقرية يهودا هاليفى ، الشاعر
 الفيلسوف (١٠٨٠ - ١١٤٥) عن أسطورة « أن هواء فلسطين مقدس
 وهذا هو سبب قيام الأنبياء فى تلك البقعة من الأرض . فكما أن أرضا
 معينة تنتج نبيذا معينة ، تنتج تربة وهواء فلسطين النبوة » !! (٢) .

وبناء على هذا التطلع لمقدم المسيح ، اعتبر اليهود أنفسهم أنى
 وجدوا أنهم فى إقامة مؤقتة ، الى أن يحين يوم عودتهم الى وطنهم (٣) :

* * *

Yehudah Halevi, Book of Kuzari, tr. by Har- (٢)
 twig Hisohfeld. New York : Pardes Publishing House, 1946
 II, 13, p. 28.

(٣) كذلك رأى موردخاى مانويل نوح (١٧٨٥ - ١٨٥١) أن
 الوطن القومى لليهودى الذى أراد انشاءه فى جزيرة جراندا ايلاند فى

٢ - اثر التحرير فى الدين اليهودى وفى القومية الدينية اليهودية :

أحدث التحرير أثرا عميقا فى نفوس اليهود ، لدرجة أنه زرع قوميتهم الدينية من أساسها ، وكان لا بد للقومية الدينية من التعارض مع القوميات الأوروبية التى قام التحرير على هدف انصهار اليهود فيها واعتبارهم مواطنين كالمسيحيين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات . وكان من السهل أن يقدم اليهود على الحقوق يستمتعون بها ، ولكنه من الصعب أن يأخذوا بواجبات المواطنة من ولاء وإخلاص وعمل للدولة القومية بنفس الأقدام والحماس كالمواطنين المسيحيين . فكانت المشكلة ، وكان لا بد لها من أن تكون طالما أن الدين اليهودى نفسه قومية دينية لا دين فحسب .

وبلغت المشكلة درجة التازم عندما سأل نابليون بونابرت : « أولئك اليهود الذين ولدوا فى فرنسا وعوملوا كأبنائها ، هل يرون فرنسا كبلدهم الحقيقى ومسقط رأسهم ويشعرون بواجبهم تجاهها ، بحمايتها والمحافظة على قوانينها وباطاعة والولاء لدستورها المدنى » ؟ (٤)

تهر نياجارا تحت اسم أراراط . قال : « انى اذ ادعو اليهود ليجتمعوا تحت رعاية الدستور الأمريكى والقوانين والأنظمة الطيبة الخاصة بهذا البلد أعلن أن الملجأ الذى أنوى انشاءه ملجأ مؤقت . فاليهود لن يتخلوا أبدا عن استرجاع وطنهم التقليدى . ولن يتركوا الأمل فى العودة اليه ، بل يجب عليهم أن لا يتخلوا وأن لا يتركوا »

انظر : Isaac Goldberg : Major Noah : American - Jewish Pioneer. New York : Kopf, 1937, p. 194. Joseph L. Blau and Salo W. Baron, The Jews of the United States, 1790 - 1840 : A Documentary History. New York : Columbia University Press, 1963, III, pp. 894-905.

Howard M. Sacher, The Course of Modern Jewish History. Cleveland World, 1958, pp. 60-65. Gunther Plaut, The Rise of Reform Judaism. New York : World Union for Progressive Judaism, Ltd., 1963, p. 71.

ولو حذفت كلمة « فرنسا » من السؤال ووضع محلها « ألمانيا » و « هولندا » و « إنجلترا » و « بلجيكا » و « ايطاليا » وغيرها من بلدان أوروبا لانطبق السؤال ذاته على يهود جميع هذه البلاد ، ولكن سؤالا لا بد لليهود الأوروبيين من مواجهته .

وكان جواب معظم اليهود فى غرب أوروبا لهذا السؤال ايجابيا ، اذ غير التنوير والتحرير مفهوم الدين عندهم من كونه قومية دينية الى كونه دين شخصى كالملل البروتستانتية المختلفة لا يتعارض مع الولاء للقوميات والدول الأوروبية . وقال لودفيج فيليبسون فى هذا الصدد : « سبق أن حاول اليهود أن يخلقوا من أنفسهم أمة ودولة مستقلة . أما الآن ، فهدفهم هو مشاركة الأمم الأخرى فى توصلها الى أرقى مراحل التطور الاجتماعى . فواجب العصر الجديد هو خلق مجتمع بشرى يضم جميع شعوب العالم بشكل عضوى . وكذلك ، ليس من واجب اليهود جعل أنفسهم أمة ومن دولتهم كيانا سياسيا مستقلا ، انما واجبهم الحصول على قبولهم فى الأمم كاعضاء فيها عاملين فى مجتمعاتها على قدم المساواة مع أبناء تلك المجتمعات » (٥) .

لقد اقتنع يهود أوروبا بأن دينهم يطالبهم بأن يجعلوا من أنفسهم لا قومية دينية بل جمعية دينية يشتركون فيها للتعبد والتدين الشخصى ، وإن اشتراكهم فى مثل هذه الجمعيات الدينية لا يتعارض مع اشتراكهم فى المجتمع القومى والسياسى فى كل دولة من دول أوروبا . وقال داوود ماركس ، حاخام كنيس لندن الغربية سنة ١٨٤٥ مؤكدا عدم التعارض بين الولاءين : « نعم نحن نتطلع الى عودتنا الى يهودا ، ولكن فقط فى ذلك الوقت الذى يتغير فيه العالم كله . عندما تنصهر الأمم فى بوتقة سياسية واحدة ، وينقلب نظامها الحاضر راسا على عقب .

(٥) راجع كتاب بلاوت السابق ذكره ، صفحة ١٣٦ ، حيث ينقل كلمات فيليبسون من مقال (What is Judaism?) من مجلة (Allgemeine Judenthums) Zeitung des, I, p. 2.

فالى أن يحدث هذا ، ولا بد لمثل هذا الحدث من أن يتصف بما يتصف به قيام الساعة ، يعلنها اليهود بصوت واحد بأن لا رغبة لنا فى أى بلد سوى مسقط رأسنا . فالى البلد الذى ولدنا فيه نولى ولاءنا ويتوقد شعورنا الوطنى وحماسنا القومى اللذان لا يقلان اخلاصا وحرارة عن اخواننا المواطنين الانجليز غير اليهود « (٦) .

وقد مر بنا كيف عالج جايجر ، مفكر الاصلاحيين الأكبر ، هذه المشكلة (٧) .

وقد تبع هذا التعديل فى الولاء اليهودى تعديل لاهوتى . اذ كان اليهود يؤمنون بأن تشنتهم فى العالم كان جزاء على ما ارتكبه من اجرام ، وأنه لا بد منته عندما يقتنع الاله بتكفيرهم عن خطاياهم . اما الان ، فهم ظنوا أن تشنتهم كان أمرا لا بد منه ليتمنى لهم تحقيق رسالتهم فى جميع الأمم . فهو خير لا شر . ورسالتهم ليست الا نشر التعاليم التوحيدية والأخلاقية فى العالم ، وكذلك ، رأوا ضرورة إعادة تأويل نظرية المسيح وذلك بتجريدها من معناها السياسى وتأكيد المعانى الروحية فيها كما فعل الآسنيون والمسيحيون من قبل ، يقول فيليبسون فى هذا الخصوص : « نحن لا نفهم وعود الله بالمعنى الضيق المشبع بالخاصية لاسرائيل ، فالمسيح لن يبعث ليخلص اسرائيل فقط ويؤتيها الحكم على بقية البشر ، كلا ، نحن نركز آمالنا على ما قاله الأنبياء بأن المسيح سيضطلع بواجب أكبر وأعظم وأجل بكثير من هذا ، ألا وهو واجب تخليص

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٧ حيث ينقل كلمات ماركس من مجلة :
Jewish Chronicle, 1845, 12, p. 27.

Abraham Geiger, Das Judentum und seine (٧)
Geschichte. Breslau : Schletherschen Buchhandlung, 1865 -
1871, p. 9.

البشر أجمع وتوحيدهم في ملك واحد قائم على عبادة الله الحق « (٨) .
 وفي نفس الصدد ، قال جايجر : « المسيح الذي سيقود الاسرائيليين الى
 فلسطين ليس منتظرا ولا مرغوبا فيه من قبلنا . نحن لا نعرف وطننا غير
 الوطن الذي ننتمى اليه من حيث مولدنا ومواطنيتنا » وجاء هذا القول في
 وثيقة « برنامج وتصريح لليهود الألمان ولأصدقاء الإصلاح الديني » الذي
 أعلن في فرانكفورت سنة ١٨٤٣ كمانيفستو حركة الإصلاح اليهودية ،
 وزاد مؤتمر فرانكفورت للربابنة سنة ١٨٤٥ نفس المبدأ ايضاحا وتأكيدا
 عندما قرر : « يجب أن تعطى فكرة انتظار المسيح مقاما بينا في الصلوات
 اليهودية ، ولكن يجب أن تحذف كل اشارة الى أرض الأجداد والى اعادة
 بناء المملكة اليهودية فيها » (٩) .

وكذلك أيضا قال شمشون رفائيل هرش ، زعيم الأورثوذكس ، :
 نقض فكرة القومية اليهودية وأول الدولة اليهودية القديمة تأويلا غير
 سياسى ففى رأيه ، أن الدولة والأرض لم تكن سوى المادة التى أدى
 اليهود بواسطتها رسالتهم الروحية ، « ان الأرض والدنيا لم تكونا فى يوم
 من الايام عروة اتحاد اسرائيل » (١٠) .

وقد حرص هرش كل الحرص على اجتناب كل ما من شأنه مناقضة
 مساهمة اليهود فى القوميات الأوروبية ، وهو القائل : « ان واجبنا هو
 أن نشترك الى أقصى حد ممكن مع اخواننا المواطنين فى كل دولة فى بناء
 الدولة التى تتبنانا ، وفى خدمتها والولاء لها . واجبنا أن لا نضع

(٨) Samuel Holdheim. Neue Sammlung Judischer. Predigten Berlin, 1852, 55, 3 Volumes, I, p. 156.
 Moses Guttman. Literaturblatt des Orients, II, 9. 1. 1844 p. 22

نقل هذا الكلام من مصدر بلاوت السالف الذكر ، صفحة ١٤٣ .
 (٩) راجع كتاب فيليبسون السابق ذكره ، صفحة ١٦٨ ، ٢٥٥ ،
 ٤٩٢ .
 (١٠) راجع كتاب هرش السابق ذكره ، التحرير السادس عشر ،
 صفحة ١٩١ .

أى مجال لانفصالنا فى أية صغيرة عن الدولة التى ننتمى إليها « (١١) .
و.فسر هرش رسالة اسرائيل على أنها رسالة روحية عالمية مؤكدا أن هذه
كانت رسالة الجالوت أو المنفى وأن المنفى لا يزال وسيبقى قائما حتى
القيامة .

٣ - نشأة الفكرة الصهيونية :

يتبين عما تقدم أن مفكرى اليهود من اصلاحيين وأورثوذكس
ضحوا بفكرة القومية الدينية فى سبيل احراز مكاسب التحرير وفى سبيل
انصهارهم فى القوميات الغربية وتقبل هذه القوميات لهم . الا أن هذا
الحل ليس وحيدا للمشكلة . فالصهيونية ، وان كانت جذورها تمتد الى
العصر البطريكى فى اوائل الالف الثانى قبل الميلاد (أى عصر ابراهيم) ،
هى ولا شك محاولة معاصرة لايجاد حل للمشكلة اليهودية كما تطورت
عبر التاريخ الأوروبى الذى استعرضناه فى هذا الكتاب . فالحل
الصهيونى باختصار هو أن يكون لليهود مجتمعهم ، ويكون لهم حقوقهم
وواجباتهم ضمن دولة يهودية مستقلة . فيكون لهم الدين والقومية والحرية
والاستقلال مجتمعين .

ولكى نفهم نشأة هذه الفكرة ، لا بد لنا من ربطها بعجلة التاريخ
الأوروبى ، اذ لا ينكر أنها جاءت كرد فعل فى ذلك التاريخ لما كان
يتحرك فيه من قوى وتيارات (١٢) . علينا أن نذكر أن تحرير أنيهود

(١١) المرجع ذاته - انظر أيضا :

S.M. Dubnow, Nationalism and History : Essays on old
and New Judaism, ed. Koppel S. Pinson. Philadelphia ; Jewish
Publication Society 1958.

Arthur Hertzberg, ed., The Zionist Idea : A (١٢)
Historical Analysis and Reader. New York and Philadelphia :
Meridian Books and Jewish Publication Society, 1960, p. 23.

وتمتعهم بكافة الحقوق التي جاءت بها حركة التنوير الى الأمم الأوروبية ، لم يتحقق بالفعل ، أو على الأقل لم يتحقق كله . ففي نفس الوقت الذي كان يقوم به المفكر اليهودى باعادة بناء هيكله حتى يتسنى له التعايش مع التنوير والتحرير كان العالم الأوروبى ينسحب من التنوير وينقض مفترضاته شيئاً فشيئاً . فالعقلانية ابتدأت تتحول فى أوروبا الى لا عقلانية ، وحرية الرأى الى تسلط فكرى جديد ، ومدنية العصر الحديث الى نوع مجدد من مدنية القرون الوسطى ، وقد بدا هذا التحول واضحاً فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، ولا يزال يسرى الى يومنا هذا ، وتبع هذا التحول الفكرى تحول سياسى أدى الى اضطهاد اليهود من جديد والى قيام نظريات قومية متطرفة مثل نظرية « الدم والأرض » التى لا تسمح طبيعتها بقبول اليهود . وهذه اللاعقلانية والقومية العنصرية اجتاحت جميع الدول الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

بل أكثر من هذا ، نشأت هذه القوميات المتطرفة فى أواخر القرن الثامن عشر فى قطاعين أوروبيين ، هما البلقان وبولندا ، وهما القطاعان اللذان شاهدا تنازع أكثر من قومية واحدة فيهما وتفسخ السكان بين الواحدة والأخرى . وفى الواقع ، نشأ يهود الكالاي (١٧٩٨ - ١٨٧٨) أول الصهيونيين بالرغم من أنه غير معروف نسبياً ، فى صربيا فى البلقان حيث شهد النزاع العثمانى - اليونانى - الصربى . ومع أنه كان أورثوذكسيا يؤمن بمعجزة الخلاص ، رأى أن لا مانع من التحضير لهذه المعجزة بالاستيطان فى فلسطين من قبل اليهود (١٣) . وعاصر هذا الصهيونى المتقدم زقى هرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٤) المولود فى بوزن فى بولندا حيث شهد صراع الروس والألمان والبولنديين ، وهو أيضاً القائل بضرورة تعاون الحكومات

(١٣) المرجع السابق ، صفحة ٢١ و ١٠٧ . راجع أيضاً فصل :
(Jewish Ethnicism) فى كتاب : (Salo W. Earon) وعنوانه :
Nationalism and Religion. New York : Harper, 1947, pp. 213-249.

الأوروبية فى سبيل اعداد المسرح لتحقيق المعجزة الالهية ، معجزة عودة اليهود وقيام دولة داوود فى فلسطين (١٤) . وقد ألف كتاباً أسماه « داريشات صهيون » (سعيًا وراء صهيون) سنة ١٨٦٢ ، حاول فيه أفاع الأورثوذكس المتعصبين لمعجزة الخلاص بضرورة السعى الانسانى والسياسى والتمهيد المادى لتحقيق المعجزة . وكأنه يقول بأن المعجزة ليست معجزة وأن كل ما هو مطلوب هو الدأب على الهجرة والتنظيم (١٥) . وكاليسر هو أول من دعا من العصريين الى الاستعمار الزراعى فى أرض فلسطين وأسس فى فلسطين تحقيقاً لهذه الفكرة مستعمرة نيتز شرقى يافا سنة ١٨٧٠ .

يبدو تأثر كاليشر بالقوميات المتطرفة - بل المقاتلة - الأوروبية واضحاً فى قوله : « لم يضحى أهل ايطاليا وغيرها من البلاد فى سبيل وطنهم بينما نقعد نحن اليهود عن أية تضحية ؟ هل نحن دون أولئك الناس الذين يضحون بكل غال ونفيس ، بالمال والحياة ، فى سبيل وطنهم وقومهم ؟ ألا يجدر بنا الاعتبار بمثل الطليان والبولنديين والمجريين الذى ضحوا بممتلكاتهم ونفوسهم فى سبيل تحقيق استقلالهم القومى ؟ بينما نحن ، أبناء اسرائيل ، نتمتع بملكية أقدس الأراضى ، ولا حراك لنا ولا حيلة » ؟ (١٦) .

وقام بعده بيريتز سمولينسكين (١٨٤٢ - ١٨٨٥) يدعو اليهود الى انتنازل عن مكاسب التحرير فى روسيا عندما شاهد الاضطهادات الشنيعة التى تعرض لها اليهود فى الثمانينات من القرن الماضى ، بينما كان قبل ذلك يدعو الى تفهم القومية اليهودية كحركة روحية بحتة ، لا سياسة

(١٤) راجع كتاب : (The Zionest Idea) صفحة ١٠٩ وما يليها .

(١٥) المصدر السابق ، صفحة ١١١ ، ١١٣ .

(١٦) Israel Cohen, The Zionest Movement. New

York : Zionest Organization of America. 1946, p. 54.

ولا أرض ولا مادة ولا عودة لفلسطين فيها (١٧) . أما بعد الثورات
الاضهادية فى بلده ، أخذ يردد : « لن تقبل اليهود أية أرض فى هذا
الكون سوى فلسطين أرض اسرائيل المقدسة . فهناك فقط يمكن لليهود
تحقيق السلام والطمأنينة » (١٨) .

ويشهد على نفس التطور فى عقلية يهود أوروبا تاريخ حياة
الزعيم الصهيونى ليو بينسكر (١٨١١ - ١٨٩١) لقد أعلنها بينسكر مراراً
أنه مع التنوير والتحرير ، وكان قد تعلم الطب وبنى تربية روسية
محضة . وكان أبلى بلاءً بطوليا فى حرب القرم فى خدمة الجيش الروسى
حتى أنه حصل على ميدالية شرف من القيصر . وكان يدعو الى ترويس
اليهود وانصهارهم فى جسم الأمة الروسية بوضوح وتأكيد . وأسس سنة
١٨٦٣ جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا بقصد تسهيل ترويسهم حتى
ثورة ١٨٧١ التى اضطهد فيها الروس اليهود وقتلهم ، لم تزحزح
عقيدته بأن الانصهار هو خير ضيق لسعادة اليهود . أما ثورات ١٨٨١
فانها ، بالنظر الى اشتراك الشعب الروسى برمته فى تقتيل اليهود
وبصورة خاصة بالنظر الى اشتراك الطبقة المثقفة والحاكمة فى أعمال
الإضطهاد ، غير بينسكر وجهته . . تنحى عن عضوية جمعية نشر الثقافة
وراح يبحث عن حل آخر لمشكلة بنى جنسه ، ولم يكن بينسكر يدعو فى
ذلك الوقت الى الاستيطان فى فلسطين اذ اعتبر أن أية أرض أخرى
مقبولة ، وعن فكر بينسكر هذا نشأت جمعية « حبة صهيون » التى
آزرها الغنى روتشيلد والتى أخذت تشتري الأراضى فى فلسطين لتوطين
اليهود فيها (١٩) .

(١٧) راجع كتاب : (The Zionest Idea) صفحة ١٤٥ و ١٥١ -

١٥٢ .

(١٨) المصدر السابق . صفحة ١٥٢ .

(١٩) المصدر السابق . صفحة ١٧٩ - ١٨١ . وفيه نص الوثيقة

(Auto Enancipation) التى خطها بينسكر . راجع أيضا كتاب كوهين

المالذ الذكر (The Zionest Movement) صفحة ٦٥ وما يليها .

والواقع أن اللاسامية الأوروبية الناتجة عن الرومانطيقية المغالية كانت تتقدم أكثر من الفكر اليهودى القائل بانصهار اليهود فى القوميات الأوروبية والمعاصرة . وسارع فى تقدم اللاسامية أن اليهود جنوا ثمرات هائلة وبسرعة مذهلة من تحريرهم فما كادوا يتحررون ويقبلون فى الأوساط التجارية والمدنية والسياسية الا وبزغوا فى كل حقل وجمعوا السلطة والحكم والمال والجاه فى أسرع من البرق . فبينما تفتت الانفرادية بين المسيحيين ، دخل اليهود المعترك الاجتماعى والسياسى والميدان الاقتصادى كحزب واحد له قوميته المختلفة ويوعى جماعى لم يتوفر لأية فئة أخرى ، وكان من الطبيعى أن يذهل المسيحيون لهذه المكاسب السريعة وأن يتنكروا لليهود ويناصبوهم العداة . وبما أن الوعى العمالى كان قد بدأ يتأهب للثورات الاشتراكية والصناعية ، كان من السهل أن يتخذ هدفا له الثراء الفاحش الذى جناه اليهود فى التجارة والصناعة .

هذا سبب لانتشار اللاسامية . والسبب الثانى هو أن أحلام القرن الثامن عشر الانسانية أخذت تتحطم وتتبدد . فبعد الثورة الفرنسية ، خاب أمل الأوروبيين بتحقيق الجنة على الأرض على أسس التنوير ، فانسحبوا من العالمية الى القومية الضيقة ، ومن الديموقراطية الى الدكتاتورية ، ومن رؤى المستقبل الى الحلم بالماضى وتمجيده ، وأخذت نظريات القومية تاتى تباعا وكلها مغالية فى رومانطقيتها . ولم يكد يعطى هيجل نظريته بأن « الدول هى فكرة الروح المطلق عندما تظهر متمسمة فى الارادة الانسانية والحرية » (٢٠) . حتى راج هاينرميش فون ترايتشكة يقول « ان نشوء وتطور الدولة ليس

George W. F. Hegel, Philosophy of History, tr. (٢٠)

by J. Sibrte New York : Willy Brook Co., 1944, p. 47.

الا الشكل الخارجى الذى تلبسه روح الشعب على نفسها « (٢١) .
والفرق بين الموقفين هو الفرق بين النظرية القومية المبنية على العقل
والنظرية القومية المبنية على عبادة الدولة .

وفى النمسا حيث لا يمكن قيام القومية على وحدة الجنس ، قال
كارل رينر ان القومية هى وحدة المصير والثقافة (٢٢) . وفى فرنسا ،
عرف رينسان القومية كاستفتاء يقوم به الشعب يوميا ولكنها ليست
الا استفتاء ، أى أن القرار الجماعى قرار عرقى . وقال فوستل دى كولانج
« القومية الحققة ليست حب الأرض ، بل حب الماضى وتمجيد الأجيال
السالفة » (٢٣) وعلى هذا التطلع الى الوراء بنى موريس باريس
نظريته فى القومية الاحدية (Integral Nationalism) وقال : « نحن
ثمرة كيان جماعى ينطق فينا ، لنضع تراث الأسلاف يستمر فينا ولنجعل
من انفسنا أبناء نشيطين وصادقين ملتحمين مع أجدادنا كيما تشكل
قوما واحدا مدى العصور » (٢٤) . ففى مثل هذه النظريات القومية
المتطرفة لا ثمة محل لليهود . وكيف لهم أن يجدوا لانفسهم مكانا فى
تاريخ قديم ومتوسط لم يدخلوه ولم يتأثروا به أبدا ؟

وفى سنة ١٨٩٤ جاءت قضية الفريد دريفوس ، الضابط فى الجيش
الفرنسى ، التى أحدثت تغيرا جذريا فى نفس الشاب تيودور هرتسل

Heinrich von Treitschke. Politcs, tr. by Blan-(٢١)
che Dugdale, et al. London : Constable, 1916, I, p. 12.

Salo W. Baron, (The Modern Age) : راجع مقال (٢٢)
Leo W. Schwarz, ed. Great Ages and Ideas of the : فى كتاب
Jewish People. New York : Modern Library, 1956, p. 355.

(٢٣) نفس المصدر .

Maurice Barres, Scenens et doctrines du Nation-(٢٤)
atlsism. Paris : Plon-Nourrit, 1925, I, p. 94.

الذى جاء الى باريس من فيينا كى يكون مراسلا لجريدة (Neue Press) فى القضية المذكورة (٢٥) . فما أن جاءت السنة التالية الا وألف هرتسل كتابه الشهير (DerJudenstaat) أو الدولة اليهودية .

وفى كتابه ، دعا هرتسل الى قيام دولة علمانية لا علاقة لها البتة بالدين اليهودى أو بفكرة العودة المعجزية ، الا أن صلة فكره كله بالتحريض والمشاكل التى أدى تحرير اليهود اليها واضح كالشمس . قال هرتسل : « اللسامية المعاصرة يجب أن لا تخطط باضطهاد اليهود فى الأزمنة الغابرة ، ولو كان لها شىء من اللون الدينى فى بعض الأحيان ، ان تيار الكره الرئيسى لليهود من نوع آخر . ففى مراكز اللسامية الكبرى ، نشأ الكره لليهود من جراء التحرير ، عندما فاقت الأمم المتمدنة الى عدم انسانية اضطهادها لليهود وتمييزها العنصرى ضدهم طوال القرون الوسطى ، جاء تحريرنا متأخرا عن أوانه . اذ لم يعد يكفى القانون العام لتحريرنا من الجيتو القديم ، ففى الجيتو « تطورنا وتقدمنا الى أن أصبحنا طبقة بورجوازية ، وعندما خرجنا من الجيتو ، أصبحنا منافسا خطيرا للطبقات الأوروبية الوسطى . وعليه ، وجدنا أنفسنا وقد دفعنا الى المعصمة دفعا . خرجنا محررين ودخلنا فى الطبقة البورجوازية نحارب من الداخل ومن الخارج . فالبورجوازية المسيحية لا تتورع قط للتخلص منا نهائيا ككبش فداء الاشتراكية التى يريدونها » (٢٦) .

وقال أيضا : « لعلنا نذوب فى الأمم الأوروبية وننصهر معها دون قيد لو تركونا وعافونا من الاضطهاد والملاحقة لمدة جيلين فقط . ولكن

Robert F. Byrnes, Anti-Semitism in Modern (٢٥) France. Vol 1, The Prologue to the Dreyfus Affair. New Brunswick, New Jersey : Rutgers University Press, 1950.

(٢٦) راجع كتاب هوتزبرج السابق ذكره (The Zionest Idea)

• صفحة ٢١٨ •

انى لهم فبعد قليل من سعة الصدر والتحرير ، تتفجر عدوة المسيحيين لنا من جديد . وكلما انصهرنا معهم ونجحنا في أعمالنا ، يتأذون لذلك ، فهم اعتبرونا منذ قرون أننا لا نصلح لعمل أو حياة . فهم على عمائم وعدم بصيرتهم وسوء نيتهم لنا ، أخفقوا في ادراك هذه الحقيقة أن النجاح يفقدنا هويتنا ويمحى الفروق التي تميزنا عنهم . الضغط والاضطهاد فقط يرجعانا الا ذاتيتنا ، عداؤهم هو الذي يوصمنا في نظر أنفسنا باننا غرباء . . اننا أمة واحدة خلقها أعداؤنا بعدائهم لنا « (٢٧) .

وقال ماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣) متذكرا لفكرة الأورثوذكس بان العودة ستتم بشكل معجز وعلى يد مسيحي الهى . منتظر . « الصهيونية نتيجة حركتين خارجتين عن اليهود :

الأولى : حركة القومية التي سيطرت على الفعل والشعور في أوروبا أكثر من نصف قرن وجاءت مسئولة عن تاريخ العالم السياسى .

والثانية : اللاسامية التي أصاب شرها جميع اليهود انى كانوا « (٢٨) .

وحتى في أمريكا ، وهى التي تمسكت بمبادئ التنوير ووضعت دستورها عليها كأساس ، ولم تعرف الجيتو بل كان اليهود فيها أحرارا منذ أن دخلوها ، لم تخل من اللاسامية ، وان كانت اللاسامية فيها لم تبلغ درجة العنف والعداء المكشوف الذى بلغته في أوروبا . ولنقرأ ما يقوله زعيم الصهاينة فيها ، الحاخام أبا هيلل سلفر ، فانه يكشف عن مخاوف اليهود من اللاسامية الأمريكية ، اذ قال سنة ١٩٤٤ : « لقد جعل العالم الجديد ممكنا لزمان ما أن ينصهر اليهود في جسم الأمة

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٢٨) المصدر ذاته ، ص ٢٤٢ .

الأمريكية ويعرفوا أنفسهم كأمریکان . الا أن هذا تبدد ولن يعود فى غالبية الأحيان . فاللسامية التى تعودنا عليها فى العالم القديم (أى أوروبا) معنا وستظل معنا الى الابد . . . من غير المتوقع أن تقوم الفاشية فى أمريكا . ولكن الأمريكان الفاشيين الذين سيقون لا ساميين على ممر الدهور سيقون معنا . . والحقيقة هى أننا نحن اليهود الأمريكان ، نجد أنفسنا الآن فى مصاف اليهود فى شتى أنحاء العالم من تشيتت وتهديد . وقد أخذنا الآن نشعر مع اخواننا فى العالم أن مصيرهم مصيرنا وأن لا غنى لنا عنهم ولا غنى لهم عنا ، بل وان هويتنا كلنا واحدة ، هى الهوية اليهودية (٢٩) .

وهكذا نرى أن العالم كله أصبح فى نظر اليهود ناقضا لمبادئ التنوير وآسفا على التحرير الذى سلبه الكثير من رخائه المادى واطمئنانه الى الدين والسياسة القائمة فى كل بلد ، بعد أن اشرك اليهود فى حياته وخرطهم فى صفوفه على قدم المساواة ، فجاءت الصهيونية ردا على هذا ونتيجة لخيبة أمل اليهود فى المسيحيين الأوروبيين الذين أعطوا فندموا فأخذوا ما أعطوه عنوة فقتلوا .

* * *

٤ - الصهيونية والملل اليهودية المعاصرة :

لم يكن تبنى الملل اليهودية فكرة الصهيونية بنفس السهولة أو السرعة ، وقد رأينا ما لبعضها من مناقضة للمبادئ الصهيونية ، فالصهيونيون لم يكونوا فى بادىء الأمر سوى أقلية ضئيلة فى أى حزب أو فئة . أما الأكثرية فكانت اما معارضة للصهيونية بصراحة أو غير مكترثة لها غير عابئة بدعايتها .

(٢٩) كتاب هوتزبرج (The Zionest Idea) السابق ذكره . ص

وكان أول تحول تجاه الصهيونية هو الذى قام به بعض المحافظين .
وسرعان ما تبنت الملة المحافظة كلها البرنامج الصهيونى وأخذت تدعو
له بشدة . وبالرغم من هذا ، كان يرى المحافظون تناقضا بين دعوتهم الى
التجنس بالجنسية الأمريكية والاندماج فى المحيط الأمريكى وبين المبادئ
الصهيونية . ولذلك جعلوا الصهيونية فى بادىء الأمر أمرا ثقافيا
لا سياسيا . وكانهم فسروا وعد بلفور التفسير الثقافى والروحى الذى
فسرته انجلترا بعد أن أصدرت التقرير الأبيض سنة ١٩٣٩ (٣٠) .

وبهذا التفسير ، استطاع الصهيونيون أن يندسوا فى صفوف
المحافظين وبيثوا دعايتهم الى أن أصبح المحافظون كلهم يعطفون على
الحركة الصهيونية فى فلسطين . وساعد هذا التحول ما آمن به المحافظون
من مبدأ « كلال إسرائيل » السابق ذكره ، وما ركزه هذا المبدأ من توجيه
واهتمام بالامة الاسرائيلية فى العالم ، وما أقامه من صروح حول
اجماع الامة فى أى وقت لا سيما فى العصر الحاضر . ومن السهل
أن يتحول مبدأ « كلال إسرائيل » الى برنامج سياسى يضم الامة
اليهودية بكاملها ويستهدف تحقيق مصلحتها وكيانها .

وكان الأمر خلاف ذلك عند الاصلاحيين والأورثوذكس : أما
الاصلاحيون فقد حذفوا من مبادئهم فكرة أن اليهود قوم : « لقد لازمنا
مبدأ أن اليهود ليسوا قوما ، فأما به ايماننا صادقا وأكيدا . ولقد قمنا
عملا بهذا المبدأ ، بدفع الأعياد القومية اليهودية الى مؤخرة اهتمامنا

(٣٠) وهو التقرير الذى أوقفت بموجبه انجلترا انتقال الاراضى الى
اليهود فى فلسطين مفسرة أنها قد أتمت تحقيق الوطن القومى
اليهودى . بمعنى أنها أوجدت فى فلسطين كيانا روحيا وثقافيا لليهود .
وأن هذا ما يبىء ذمتها . إذ هى لم تتعهد بانشاء وطن قومى بمعنى
دولة يهودية .

وحذقنا كل ذكر ودعاء بالعودة الى صهيون من ادعيتنا وصلواتنا
وطقوسنا « (٣١) .

وبالرغم من هذا الموقف المبدئى ، وجد فى صفوف الاصلاحيين
الربابنة جوستاف جوتهايل وبرنارت فلستال وستيفن وايز الذين دافعوا
عن الصهيونية وجعلوا من انفسهم ابواقا لها داخل صفوف الاصلاحيين .
وحاول هؤلاء وانصارهم جر الملة بكاملها الى المعسكر الصهيونى ولكنهم
لم يفلحوا الا فى سنة ١٩٤٣ . عندئذ وتحت ضغط الحرب العالمية الثانية
وأخبار تقتيل اليهود على يد النازيين فى أوروبا ، استطاع الصهيونيون
اقناع المؤتمر المركزى للربابنة الاصلاحيين باقرار اول قرار ملائم
للصهيونية . ونص هذا القرار على أن لا ثمة تناقض بين الصهيونية
والمبادئ الاصلاحية .

اما المجتمعات الاصلاحية ، فقد قرر مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٣٧ ،
بعد اربع سنوات من تولى هتلر الحكم فى المانيا ، بأن « واجب اليهود
جميعا أن يساعدوا فى بناء فلسطين كوطن لليهود ، وذلك ليس بمحاولة
جعلها ملجأ لليهود والمضطهدين فحسب بل مركزا للثقافة اليهودية
والحياة اليهودية الروحية » (٣٢) . ولكن هذا القرار لم يفعل أكثر من
ازالة معارضة الاصلاحيين للفكرة والبرامج الصهيونية . فهو لم يدفع
بالملة كملة الى المعسكر الصهيونى . وحسب نظام (Congregationalism)
المتبع فى الملة لكل مجتمع وكنيسة اصلاحية الحق فى اقرار ما تشاء ،
فبينما انخرط عدد كبير من الكنائس الاصلاحية فى صفوف الصهيونية ،
بقى عدد مهم منها خارج هذا النطاق .

The Hebrew Union College Journal, November (٣١)
1896

(٣٢) قارن بين مقالات :

Reform Judaism : Essays by Hebrew Union College Alum-
ni, Cincinnati : Hebrew Union College Press, 1949.

ولعل أهم فرع من الملة الإصلاحية الكنائس الداخلة فى المجلس الأمريكى للدين اليهودى المسمى (The American Council for Judaism) والذى يرأسه الحاخام آلر برجر الشهير ، الذى ألف كتبا عدة ضد الصهيونية ، وهو لا يزال يعمل بنشاط هائل فى مكافحتها .

أما اليهود الأورثوذكس فقد انقسموا حول الصهيونية الى قسمين : قسم المنظمة المزراحية ، وهى التى تقبلت الحل السياسى لمشكلة خلاص اليهود بدل الحل المعجز على يد الآلهة . وقسم جمعية أو آجودات اسرائيل الذى أصر على أن خلاص اليهود لن يتم بطريقة السياسة وأن لا بد له من العمل المعجز الالهى . لقد أقر مجلس الربانة الأورثوذكس مبادئ كلا الحزبين بالرغم من اختلاف نظريتهما ، ومع هذا ، فالانقسام لا يزال قائما الى يومنا .

يميل الجيل الجديد الى المزراحيين فى تبني الصهيونية كبديل للمخلص المسيح المنتظر . الا أن المزراحيين ، بالرغم من تفوقهم العددي على آجودات اسرائيل ، لم ينخرطوا حتى هذه اللحظة رسميا فى المنظمة الصهيونية الأمريكية . وهم يصرون أنهم يتعاونون معها فقط ، وأنهم ليسوا عليها .

وقد قام اليهود فى أمريكا قيام رجل واحد سنة ١٩٤٨ للضغط على حكومتهم بمؤازرة وتأييد الدولة المزعومة والتأثير على الأمم المتحدة لاقرار التقسيم وانشاء الدولة اليهودية . وفى تلك الآونة ، كانت الصهيونية لهم جميعا دينا ، ولكن حماستهم أخذت تفتربعد أن قامت اسرائيل وبلغ أقط درجاته سنة ١٩٦٧ قبيل حرب حزيران . ومع أنه تبين للجميع قبيل نكسة حزيران ١٩٦٧ وبعدها مدى تصهين يهود أمريكا اذ كانت حماستهم أشد من حماسة ١٩٤٨ ، الا أن الحقيقة التى لامراء فيها هى أن حماستهم هذه المرة كانت مدفوعة من الحكومة الأمريكية التى أطلقت جميع وسائل الاعلام الأمريكى بالتهجم على العرب وتأييد اسرائيل .

ولا يمكننا أن نقول اليوم أن هذه الحماسة باقية بل على العكس ، فالظاهر هو أن الصهيونية كدين قومي لليهود خارج اسرائيل قد انتهى أمره . وهذا لا يعنى أن اليهود لن يساعدوا اسرائيل ، ولكنه يعنى بحق أن الشعور الدينى اليهودى أخذ يبحث عن أهداف أخرى بعد أن تحقق له حلمه القديم فى جعل فلسطين دولة يهودية من جهة ، وبعد أن اكتشف أن تحقيق ذلك الحلم لا يشبع كل ما فى الشعور الدينى من ضغط وأمل .
